

## الحوار الإسلامي - المسيحي والتجربة الأندلسية

رضوان السيد

الحياة - 08/06/24 //

اتفق الطرفان السعودي والفاثيكناني على أن تكون إسبانيا هي البيئة الأولى للحوار الذي يعقد بين المسلمين وأهل الأديان الأخرى، وبخاصة المسيحيين. ولا شك في أنه جرت في ذلك مراعاة الذاكرة التاريخية للتجربة الأندلسية، حيث شهد ذلك الجزء من إسبانيا تجربة عيش وحضارة بين المسلمين والمسيحيين امتدت على مدى سبعة قرون ونيف.

والواقع أن تلك التجربة في وجوها المتعددة وتعقيداتها، تُشبه إلى حد كبير التعقيدات التي تشهدها منذ حوالي القرنين علائق المسلمين بالغرب والحضارة الغربية. فالعلاقة بين الغرب الأوروبي والأميركي من جهة، والعالم الإسلامي من جهة ثانية، ومنذ القرنين، هي في أحد وجوها علاقة غلبة، الطرف الغربي فيها هو الأقوى. وهي غلبة متعددة المناحي والاتجاهات الحضارية والثقافية والاستراتيجية والاقتصادية والعسكرية. وقد خفف من وطأتها في نظر البعض أنها ما اتخذت في الغالب سمات الغلبة الدينية، لكن كانت لها بالتأكيد آثار ضخمة في وعي المسلمين وواقعهم، وأحداث 11 أيلول (سبتمبر) عام 2001، ورؤية الفسطاطين، تدل على أن عرباً ومسلمين كثيرين فهموا الأمر باعتباره غلبة دينية أيضاً، سواء أكان ذلك خطأ أم صواباً. وفي التجربة الأندلسية كان الأمر معكوساً، فقد كانت الغلبة للعرب والمسلمين على مدى التجربة التي استمرت قروناً، كما كانت تلك الغلبة شاملة في الدين والحضارة، وإن لم تتخذ سمات الهيمنة المطلقة التي عرفتها الأزمنة الغربية الحديثة. فقد أعاد الغرب صنع العالم من جديد، وصار ضرورياً لمن يريد أن يعيش في هذا العالم بالكفاية والكرامة الإنسانيين، أن يمارس الأساليب «الحديثة» كلاً أو بعضاً. ولعل مشكلة المسلمين - والأمم الآسيوية الأخرى -، التي لم تجد لها حلاً حتى الآن، محاولة قَصر الغلبة على حدود معينة، بحيث لا يؤدي ذلك إلى نوبان الهويات الخاصة أو دمارها. وقد أفلح الإسبان في العصور الوسطى الإسلامية في ذلك. إذ احتفظوا - على رغم الصعوبات - بالانتماء الخاص الديني والثقافي، واستطاعوا على رغم قرون الغلبة الإسلامية المتطاولة، أن يستعيدوا في «حروب الاسترداد» السيطرة على مقدراتهم، وأن يُنهوا الوجودين العربي والإسلامي في كل المجالات.

ولعل هذا المصير المؤسي للثقافة العربية والإسلامية في إسبانيا وأجزاء شتى من أوروبا (مثل صقلية) هو الذي يستحق التأمل والاعتبار، لكي نستطيع تقدير التجربة العريقة تلك حق قدرها، ونقرأ ونعي معانيها الإيجابية، وجوانبها الأخرى. فقد سيطر العرب

والمسلمون الآخرون على إسبانيا أماداً متطاوله، لكن الإسبان ما انتهوا ولا ذابوا، كما أن المسيحية التي تعرضت ولا شك لضغوط، ما تعرضت للإبادة. بينما ما قبل الإسبان الذين استعادوا بلادهم، أن يبقى المسلمون المدجنون هناك على دينهم، وتعرضت الملايين الثلاثة ومئات الألوف من اليهود للإزالة: اليهود هُجروا أو ارغموا على اعتناق المسيحية، كما ارغم على ذلك أيضاً مليون مسلم، وهاجر مليون، وأبيد مليون. وقد أُضيفت الى تلك السطوة العسكرية والأمنية القاسية، بدعة «محاكم التفتيش» التي ما كانت تقبل من المسلم واليهودي اعتناقه الظاهر للمسيحية، بل أرادت التحقق من ذلك روحياً وقلبياً وعقلياً، وقد فشل عشرات الألوف من أولئك البؤساء في الامتحان، كما هو معروف. والطريف أن البابا السابق يوحنا بولس الثاني - وهو صديق للمسلمين - وعندما كان يورّع الاعتذارات عما ارتكبه الكاثوليك، وارتكبته محاكم التفتيش، نسي أن يعتذر للمسلمين، واكتفى بالاعتذار لليهود.

قامت في الأندلس، وبمشاركة واسعة، بين المسلمين والمسيحيين واليهود، حضارة كبرى ومنتظمة بمقاييس ذلك الزمان. ولا تقوم الحضارات الكبرى إلا بذلك وعلى ذلك. وأتى الى جوارها وظلالها أوروبيون آخرون كثيرون تعلموا وأنتجوا، وتخرج منهم فيها علماء صاروا باباوات. كان بين أهم ما تعلموه: العيش في ظل مجتمع متعدد الديانات والثقافات، واكتساب منجزات الحضارات السابقة التي استوعبها المسلمون، وفي طليعتها الحضارة اليونانية. وظلّوا جميعاً على مدى ستة قرون - هكذا يقول جورج سارتون مؤرّخ العلوم الكبير - يفكرون ويعملون وينتجون، في نطاق الحضارة الإسلامية الشاسعة الأرجاء. لكن أوروبا المسيحية والعلمانية وحتى أواسط القرن العشرين، ما اعترفت بشيء من هذا الميراث الحضاري، إذ اعتبر أكبر مفكرها أن المسلمين ما أبدعوا شيئاً، بل أسأؤوا في ترجمة حضارة الإغريق وفهمها. وقد ظهرت في الحضارة الإسلامية تيارات فكرية ودينية متشددة، ما قبلت الاعتراف بالموروث اليوناني والفارسي والهندي. لكن تلك الاتجاهات ما استطاعت الغلبة أبداً، وابن رُشد الذي عاش في ظل دولة متشددة دينياً، ظل أكبر المستوعبين والشارحين لنصوص حضارة اليونان على مدى العصور الوسطى كلها. ورجل كأبي حامد الغزالي، قامت شهرته على التصدي للتأثيرات الحضارية اليونانية، عندما نقرأ اليوم كتابه «مقاصد الفلاسفة» نعرف أنه استوعب روح ذلك النظام الفكري العريق، سواء أحبه أم لم يحبه. ومنذ القرن التاسع الميلادي، أي بعد قرنين ونصف قرن على ظهور الإسلام، نجد في مؤلفات العلماء المسلمين (حتى كتب الردود على النصارى) معرفة دقيقة بالمسيحية عقائد وفِرَقاً، يندر أن يعرفها المسيحيون غير المتخصصين، بينما ظل «علماء» أوروبا حتى القرن الخامس عشر الميلادي، لا يُحسنون نُطق اسم النبي محمد (صلى الله عليه وسلّم) على الوجه الصحيح، فضلاً عن أن يعرفوا أصول الدين الإسلامي معرفة مقبولة!

وقد كان من الطبيعي عندما حرر الإسبان آخر أجزاء أرضهم من السيطرة الإسلامية عام 1492م ألا ينظروا الى الفاتحين والغزاة نظرة إيجابية. لكن الذي يؤخذ على تلك النخب الإبادة المتعمدة للبشر والحضارة، بعد أن زالت السطوة، وما عاد هناك خطر من أي نوع على البلاد والدين والثقافة. بل إن الإسبان والبرتغاليين (وبعدهم البريطانيون والهولنديون والفرنسيون والنمساويون والطيالين) مضوا قُدماً للسيطرة على السواحل والدواخل التي لجأ إليها الأندلسيون الهاربون. ومع السطوة والسيطرة أرادوا إلغاء الدين الإسلامي في البلدان التي خضعت لهم. وحتى وقت قريب، كان المؤرخون الأوروبيون يأخذون على أحد ملوك البرتغال أنه ما طرد المسلمين واليهود من مملكته الصغيرة، بل اكتفى بأخذ «الجزية» منهم أضعافاً مضاعفة!

لماذا أقول هذا كله هنا والآن؟ أقوله لأن العلاقة بين المسلمين والغرب اليوم تعاني جراحاً كثيرة يتحمل الطرفان مسؤوليات بارزة فيها. بيد أن الغلبة الغربية تتحمل المسؤوليات الأكبر، لأنها غلبة بالفعل، ولأن المغلوب - كما قال ابن خلدون - يقْد الغالب. بيد أن ابن خلدون كان يقصد بذلك أساليب الحياة واللسان وعادات العيش. والذي أراه أن تقليد المغلوب للغالب يشمل طرائق التعامل أيضاً. فعندما يصبح التعامل مع المغلوب قاعدته العنف والاستغلال، فإنه سيتعامل بقدر ما يستطيع، وبأساليب حمقاء شأن الضعفاء، مع غاليه والمسيطرين عليه. فالدرس الأول الذي ينبغي تعلُّمه من التجربة الأندلسية أنه ممكن ومعقول ومُشاهدٌ ومجربٌ إمكان قيام حضارة إنسانية بالمشاركة وبالسعة وبالتلاقح وبالاعتماد المتبادل، وبالفهم المتبادل.

والدرس الثاني الذي ينبغي تعلمه من التجربة الأندلسية أن الإبادات يمكن أن تحدث بين الدول والأمم على قلة، لكنها مستحيلة في العلائق بين الحضارات. والحضارة الأندلسية التي تعرض مؤسسوها للإبادة، خير دليل على ذلك. إذ تأسست عليها الحضارة الغربية من جهة، وها نحن نلجأ الى مثالها وتجربتها لتأسيس آخر للعلاقة بين المسلمين والغرب، من دون غلبة أو تنافر. والدرس الثالث أن الديانتين الإسلامية والمسيحية أمامهما تجربتان: تجربة الحروب الصليبية، والتي كان فيها الفرنجة مسيطرين باسم الدين، وقد انتهت بعد منئي عام من دون أن تترك غير الوقائع السيئة والذكريات المرة. وتجربة الحضارة الأندلسية التي ما كانت كلها شهداً وحلاوة، لكنها صنعت ثقافات وأسست لإمكانات تفاهم وتعايش، نادري المثال، بين أكبر ديانتين عالميتين. والدرس الرابع أن جولات الكرّ والفرّ بين ضفتي المتوسط، والتي استمرت لعشرات القرون، أن لها أن تصل الى خاتمة مُغايرة، فلا تعود الحروب ووجوه التعلُّب هي عماد الحضارة. كان الملك الإسباني، ورئيس وزراء إسبانيا، قد تحدثا قبل عام ونيف عن «تحالف الحضارات»، وها نحن المسلمين نتحدث اليوم ونعمل من أجل «حوار الأديان». وبين هذا وذاك صلة وثيقة،

تتضمن آمالاً كبيرة في استمرار الحركة بالاتجاه الصحيح، بعيداً من الفسطين المتواجهين، ومن «صدام الحضارات» الدامي.

\* كاتب لبناني